الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أحمد زبانه.غليزان

محاضرات في لسانيات النص موجهة لطلبة سنة ثانية ماستر لسانيات الخطاب

أ لعرباوي

المحاضرة الأولى: من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص

تمهيد:

تُعدُّ اللغة من أهمِّ وسائل الاتصال بين البشر، ولذلك كانت محلّ اهتمام الباحثين منذ القدم من أجل كشف أسرارها ومعرفة كيفيّة اشتغالها، وقد كانت الجملة في بداية الدرس اللّساني محور الاهتمام، واعتبُرت الوحدة الأساسيّة عند أصحاب النّظريات اللسانية، ولكن مع تطوّر الدِّراسات والعلوم، انتقل الاهتمام من الجملة إلى مستوى أعمّ هو النص؛ إذ لا يمكن الإحاطة بمعنى تلك الوحدات الجملية إلا بوضعها في إطارها الكلي ألا وهو "النص".

وقد نشأ علم جديد يهتم بدراسة النّصوص وتحليلها دون إهمال أي طرف من أطراف الحدث التّواصلي وهو ما يعرف اليوم بـ" لسانيات النص" الذي يبحث في تماسك النصوص وتعالق أجزاءها حتى تتكون وحدة كلية تؤدي أغراضا معينة في مقامات تبليغية محدَّدة.

1/المنعرج اللساني في دراسة اللغة:

شكّلت اللغة أرقى مظاهر التعبير عند الإنسان، تجلّت من خلالها قدرته الإبداعية في التواصل مع غيره والتعبير عن مواقفه وأحاسيسه، ونظرا لدورها الفعّال في إثبات وجود الإنسان، فقد شغلت اهتمامه منذ العصور الأولى في مسار المعرفة، حاول فيها المفكرون كشف خصائصها ومستوياتها، ولأنّ التواصل لا يتم بواسطة جمل معزولة، وإنّما عن طريق نصوص وخطابات، فقد ظهر اتجاه جديد في الدرس اللساني عُرف ب: لسانيات النص.

إلاّ أنّنا وبالتأمل في تاريخ هذا الدرس اللساني نجده قد ارتبط-ولفترة طويلة من الزمن-بدراسة الجملة بوصفها الوحدة اللسانية القابلة للتحليل، وعليه فقد

اعتمدت دراسات التراكيب اللغوية جميعها على وجه التقريب منذ نشأتها في العصور السحيقة على مفهوم الجملة دون غيره، وكانت بذلك الجملة الوحدة اللغوية الكبرى للدراسة، إلى أن جاء زليخ هاريس وأكّد أنّ الفونيم يأتلف مع فونيم آخر لبناء مبنى صرفي، ثمّ يأتلف هذا مع غيره من فئته لتكوين المرتبة العليا من التأليف اللغوي وهو التركيب الجملي الذي هو مصب أخير للمستويات الفونولوجية والمورفولوجية وهو غايتها .

كما يعبر عن ذلك جاردنز بقوله: "هي الوحدة الكبرى للوصف اللغوى . كما يذهب إلى ذلك جون ليونز،وفى تعريف آخر هي"نمط تركيبى ذو مكونات شكلية خاصة."

غير أن معظم هذه التعريفات تؤكِّد من خلال مفهومها على استقلالية الجملة، ويتأكَّد هذا فى نحو الجملة بحيث يقتصر فى دراستها منزوعةً من سياقها، وفى هذا الإطار ميَّز **جون ليونز** بين ما أطلق عليه: جملة نظام وجملة نصيَّة .

" **فجملة نظام**: هي بعض شكل الجملة المجرَّد الذى يولِّد جميع الجمل المكنة و المقبولة فى نحو لغة ما " ، وهذا يجعل من الجملة أكثر استقلالية.

" **وجملة نصية**: هي الجملة المنجزة فعلا فى المقام " ، و تتَّسم بالتواصل مع جملة أخرى "حيث يحتويها نص ما... وهذا النوع من الجمل لا يُفهم إلاَّ بإدماجه فى نظام الجمل."

وهذا التَّقسيم الثُّنائى للجمل هو الذى أدَّى بجون ليونز إلى تعريف الجملة كما سبق بأنَّها الوحدة الكبرى للوصف اللغوى وربَّما هذا ما جعل"ج.ب.براون وج.يول يعتمدان النوع الثاني من تقسيم ليونز بقولهما:"سنستعمل مصطلح الجملة عامَّةً بمعنى الجملة النَّصية لا بمعنى الجملة النظامية." وهذا فى كتابهما تحليل الخطاب.

فالتعريفات السابقة للجملة التى جاء بها و اللغويون والدارسون الغربيُّون كلُّها تشترك فى اعتبار الجملة محور الدَّرس اللغوي والوحدة اللغوية الأساسية المستقلة بذاتها المستغنية عن غيرها فهي الممثِّل الوحيد للغة .

كما أنّ أصحاب هذا الاتجاه-نقصد نحو الجملة-أهملول الجانب الدلالي، أو لم يهتموا به اهتماما كافيا مما حذى بعلماء النص إلى تلافي هذا القصور في دراستهم، وفي هذا السياق يقول فان ديك:" في كل الانحاق السابقة على نحو النص وصف للأبنية اللغوية، ولكنه لم يعن بالجوانب الدلالية عناية كافية، مما جعل علماء النص يرون البحث الشكلي للأبنية اللغوية ما يزال مقتصرا على وصف

الجملة، بينما يتضح من يوم إلى آخر جوانب كثيرة لهذه الأبنية-وبخاصة الجوانب الدلالية لا يمكن أن توصف إلا في إطار أوسع لنحو الخطاب أو لنحو النص"

إذن نتيجة لتلك الاختلالات التي وقعت فيها لسانيات الجملة، وذلك التطور الذي مسّ الكثير من المفاهيم اللسانية والنقدية في تعاملها مع الظاهرة الأدبية بشكل خاص في سياق تحليل الخطابات ظهرت لسانيات النص لتتجاوز لسانيات الجملة التي انبنت على فصل الوحدات اللسانية عن الموقف التخاطبي وإخضاع الجمل الطويلة المركَّبة لمجموعة ثابتة من التراكيب اللغوية البسيطة، لذلك نجد أن الباحثين قد اتجهوا في هذه الفترة إلى إبراز شروط الاتصال اللساني، وأوجه التأثير التي تحققها النصية في المتلقي، وكذا قواعد إنتاج النصوص الأدبية وفهمها وتأويلها بمراعاة قواعد الترابط بين الأبنية النسقية من ناحية والدلالية من ناحية أخرى، متخطية بذلك انموذج التحليل اللساني الذي أرساه بلومفيلد، ليصبح النص هو وحدة التحليل بوصفه كلاًّ متكاملا وليس مجرّد تتابع لعدد من الجمل .

وفي هذا الصدد يشير أكثر من باحث إلى أنَّ بداية البحث في النص – بشكل عام- ترجع إلى رسالة **NYE**"، وهي باحثة أمريكية قدَّمت أطروحتها للدكتوراه سنة(1912م)، والتي بحثت فيها علامات الاكتمال في النص، ودرست التكرار بناء على أسس نصية، بوصفه شكلاً من أشكال العلاقات في النص.الأمر الذي أحدث ثورةً في الدرس اللساني ونقل الدرس اللغوي من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص، عن طريق" التَّحول الأساس الذي أخرج اللسانيات نهائيًّا من مأزق الدراسات البنيوية التركيبية التي عجزت في الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية:البنيوي، الدلالي، والتداولي"

ويرجع الباحثون نشأة هذا العلم بعد نشر "**زليغ هاريس**" بحثا بعنوان "تحليل الخطاب" (Discoure Analysis) عام 1952، إذ أنَّه بهذه الدراسة "لم يكن أول لساني حديث يعتبر الخطاب موضوعا شرعيًا للدرس اللساني فحسب، بل إنَّه جاوز ذلك إلى تحقيق قضاياه التي ضمنها برامجه بتقديم أوَّل تحليل منهجي لنصوص بعينها، وقد خرج بذلك على تقليد أرساه "**بلومفيلد**" يقضي بأن التعبير اللغوي المستقل بالإفادة أو الجمل هو مادة اللساني، أما النص فليس إلا مظهرا من مظاهر الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد".

وفي هذا الصدد يقول "هاريس" (Harris)**:** إن "اللغة لا تأتي على شكل كلمات أو جمل مفردة، بل في نص متماسك"، معتمدا مقاربة وصفية بهدف اكتشاف بنية النصوص، ولكي يتحقق هذا الهدف، رأى "هاريس" أنه لا بد من تجاوز مشكلتين وقعت فيهما الدراسات اللغوية (الوصفية والسلوكية)، وهما:

الأولى: قصر الدراسات على الجملة والعلاقات فيما بين أجزاء الجملة الواحدة.

الثانية: الفصل بين اللغة والموقف الاجتماعي.

فهو اعتمد في منهجه في تحليل الخطاب على ركيزتين:

- علاقات توزيعية بين الجمل.
- الربط بين اللغة والموقف الاجتماعي".

وبعد هذه الفترة تنبَّه بعض اللسانيين إلى المشكلة التي طرحها "هاريس" خصوصا فيما يتعلَّق بالعلاقات التَّوزيعية بين الجمل ومشكلة الربط بين اللغة والموقف الاجتماعي والتي في مجملها تُنادي بضرورة مجاوزة محور الجملة في الدِّراسات اللسانية إلى النص.

وعليه يمكن القول أنّ ظهور لسانيات النص ارتبط باتجاهين؛ الأول ينكلق من عدم كفاية نحو الجملة لوصف الظواهر التي تتجاوز حدودها، ليتناول بالدراسة النص باعتباره وحدة التحليل، وبدأ أصحاب هذا الاتجاه ينادون بضرورة تخطّي نحو الجملة ليشمل النص، أمّا الاتجاه الثاني فتناول النص من حيث هو كل، ويعدّه منطلقا للدراسة.

وقد تشكّل هذا الفرع اللساني منذ منتصف الستينيات تقريبا، وازدادت وضوحا خلال السبعينيات من القرن الماضي محولا مجرى الدراسة اللسانية من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص جاء ليكون بديلا فقد استطاع "دي بوجراند" أن يستعرض المسار التاريخي للسانيات النص في هذه الفترة وقبلها؛ حيث قسَّمها إلى ثلاث مراحل يقول: "ففي **المرحلة الأولى** التي استمرت حتى آخر الستينيات، لا نجد غير إشارات تلمِّح إلى أنه ينبغي للنص أو الخطاب أن يكون أساسًا للدراسات اللسانية، وذلك على لسان كلٍ من: "انجاردن" 1939، و "هيلمسليف" 1943 و"هاريس" 1952 ... وهارتمان"1964"، و" "فيانرش" 1966 الذي حرص على أن يقدِّم نهجًا جديدًا في معالجة النص". وعُدَّ منهج تجزئة النص منهجًا بديلاً للمنهج المعروف والمستخدم باستمرار في كل مراحل الدراسة اللغوية في تحليل الجملة.

لكن هذه الآراء لم تؤثِّر في مسيرة اللسانيات المألوفة؛ "لأن أصحاب المناهج المتداولة اتَّجهوا اتجاها معاكسًا ...؛ ذلك أن الانهماك في النظر إلى الوحدات الصغرى والجملة المفردة"، لم يتح الفرصة للاهتمام مباشرة بدراسة النص الكامل.

وفي المرحلة الثانية 1968 تلاقت آراء طائفة من اللسانيين الذين استقل بعضهم عن بعض في الغالب حول فكرة "لسانيات ما وراء الجملة"، منهم على سبيل المثال:

- "إيزنبرغIsenperg" الذي اعتنى بالبحث في العوامل المتحكمة في اختيارات صاحب النص، ومن أبرزها تلك العوامل – في نظره –**المجاورة** التي تضم مجموعة من الأدوات التي تنظِّم علاقات الجمل بعضها ببعض كالضمائر وحروف التعريف ... والاقتران بعلائق سببية أو فائية أو أي علاقات أخرى.

و"هارفيج Harveg" الذيقدم نموذج استبدال، تتحرك فيه عناصر الاستبدال على المستوى الأفقي وغلب عليه إدراك النص إدراكا وظيفيا، ثم أدخل فيما بعد جوانب نصية كبرى للوصول إلى العلاقات الدلالية – التداولية، والتي تشكل بناء النص.

و**"فان دايك"** الذي قدم عدة نماذج نصية، ونظرات مختلفة حول دراسة النص ووصفها وتفسيرها، وقد اعتمد في نماذجه على عناصر لغوية، فأدخل فيها مكونات نفسية ومنطقية- دلالية، واتصالية- تداولية إلى جانب المكونات التحويلية والدلالية- التداولية، وقد حاول "فان دايك" مرارا تعديل نماذجه قصد استيعاب عدد أكبر من النصوص.

وفي العموم فقد تركز الانتباه في هذه المرحلة على موضوعات كان الكلام عنها ممكنا بواسطة مفردات من لسانيات الجملة، لكن دون الوصول إلى حلول مقنعة، وكان الاتجاه السائد كما يقول "دي بوجراند": "هو النظر إلى النص من حيث هو جمل متوالية"، ولم توضح لنا هذه المرحلة إلا جزءا يسيرا من مجموعة المميزات المهمة للنص.

وكانت سنة 1972 بشيرا بمرحلة جديدة من البحث في اتجاه نظريات بديلة مما سبقها في حقل اللسانيات، أكثر مما هي مراجعة للقديم.

وجاءت الدراسات الجديدة نقدا لأسس الدراسات النحوية المبنية على الجملة، فأدت إلى مقترحات بأفكار جديدة جاء بها "بيتوفيPetovi"، الذي قدم محاولات جدية وثرية، ولها سمات خاصة، وقد اتسمت نظريته بالتوسع والتي استقرأ عناصرها من المنطق والنحو التحويلي ومكونات أخرى دلالية وتداولية ، والتي انتقل بها من محورية الجملة في الدراسة إلى اعتماد النص، وكانت محاولاته قفزة هامة للتحول إلى اللسانيات النصية.

وفي هذه المرحلة ظهر أيضا "دريسلر" **1973** و "شميدت" **1973** و "هارتمان" **1975** دون أن ننسى العمل الكبير الذي قام به "هاليدي **Haliday"** ورقية حسن سنة **1973** والموسوم بـ "الاتساق في الانجليزية" **"COHESION IN ENGLISH"** والذي يعد بحق إحدى الدراسات المهمة والعظيمة التي حددت المعالم الأساسية للسانيات النص.

فهذه هي المراحل الثلاث الهامة حتى السبعينيات من القرن الماضي التي ذكرها "دي بوجراند" لتطور لسانيات النص للوصول إلى تشكلها، على الرغم من

أن هذا العلم لم يكتمل بعد اكتمالا تتضح فيه معالمه الأساسية وتتوحد فيه مصطلحاته الرئيسية إذ لا تزال إلى حد الآن تتقاطع مصطلحاته مع مصطلحات علوم أخرى خصوصا منها اللغوية، وهذا ربما لكونه أحدث فروع علم اللغة والذي يتميز عنها من جهة النشأة والتطور، حيث إنه لم يرتبط كما يذهب إلى ذلك مؤرخوا هذا العلم ببلد معين أو بمدرسة بعينها أو باتجاه محدد، هذا على عكس معظم العلوم الأخرى التي لم تتسم بهذه الميزة في الغالب.

فهذا العلم يتقدم الآن يوما بعد يوم وصار يدرس في جميع أنحاء العالم، وهذا ما هو واضح في كليات الجامعات العالمية، وفي كل يوم تظهر لنا إسهامات جديدة تضاف إلى الدراسات السابقة، وظهر في العالم العربي كغيره من مناطق العالم باحثون ومهتمون بهذا المجال المعرفي الجديد أمثال "صلاح فضل" و "سعيد حسن بحيرى" و "أحمد عفيفي" و "إبراهيم خليل" وغيرهم، كلهم يرون ضرورة تجاوز دراسة الجملة إلى النص دون إهمال الأولى التي تعد النواة الحقيقية للنص.